الدراسة المصطلحية

وعلم الدلالة

الدكتورة فريدة زمرد

دار الحديث الحسنية

تقديم

جرت العادة عند الباحثين المهتمين بالدراسة المصطلحية، تنظيرا وتطبيقا، أن يعتبروها نوعا من الدرس للمصطلح، يرتكز على أدوات منهجية مستمدة أساسا من الطرق الوصفية والتحليلية، كما جرت العادة أن يطلق على هذا النوع من الدرس اسم "منهج الدراسة المصطلحية"، والمقصود بهذا الإطلاق: الأصول المنهجية التي ينطلق منها الباحث والإجراءات التي يتبعها في دراسته للمصطلح.

وهذا يعني أن الدراسة المصطلحية ليست منهجا علميا قائم الذات كباقي المناهج العلمية المستعملة في العلوم الإنسانية (كالمنهج التاريخي، والمنهج النفسي...)، بل هي دراسة تستفيد من مناهج مختلفة.

ولما كان أساس الدراسة المصطلحية دراسة المصطلحات في نصوصها واستخلاص دلالاتها ومعانيها، صارت للدراسة المصطلحية صلة بفرع من فروع علم اللغة يهتم بدلالات الألفاظ ومعانيها، وتطور هذه الدلالات، وهو علم الدلالة.

لذلك اختارت هذه الورقة الإشارة إلى مجموعة من التقاطعات المنهجية التي تجمع الدراسة المصطلحية بالدراسات الدلالية، وذلك في سبيل تطوير مفهوم الدراسة المصطلحية والارتقاء بها، علما بأنها تمتلك من الخصائص المنهجية والعلمية ما يجعلها

جديرة بذلك. وقبل عرض هذه التقاطعات أو نقط الالتقاء يتعين أولا التعريف بالدراسة المصطلحية وبعلم الدلالة.

1. مفهوم الدراسة المصطلحية

إن أول ما يتبادر إلى الذهن من مسمى "الدراسة المصطلحية" أن المقصود بها: "الدراسة التي تجعل من المصطلح موضوعا لها"، وبهذا المعنى أطلق بعض الدارسين المهتمين بالمصطلح اسم "الدراسة المصطلحية" أو "الدراسات المصطلحية" على كل الأبحاث والدراسات التي تدرس المصطلح نوعا من الدرس بغض النظر عن المجال الذي ينتمي إليه، أو المنهج المتبع في دراسته، أو الرؤية التي يصدر عنها الدارس[1].

ونظرا لجدة الاهتمام بهذا النوع من الدراسات وقلتـــه ـــ إذا ما قورِن بالاهتمام ب"علم المصطلح" مثلا أو بعلم الدلالة وعلم النص ـــ فإن الظفر بتعريفات وافية لها أمر بعيد المنال، وما يمكن عرضه هنا من التعاريف لا يعدو أن يكون وصفا لهذه الدراسة انطلاقا من تجارب تطبيقية ـــ أغلبهاـــ حديث الولادة أو في طور التكوين، من هذه التعريفات:

1. الدراسة المصطلحية "**بحث في المصطلح** لمعرفة واقعه الدلالي من حيث مفهومـــه وخصائصـــه المكونة له وفروعه المتولدة عنه ضمن مجاله العلمي المدروس به[2].

---

[1]- ففي كتاب "مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين" عرض د. الشاهد البوشيخي تحت هذا الاسم مجموعة من الدراسات المهتمة بالمصطلح النقدي، على اختلاف المنهج المتبع في دراستها (وصفي أو تاريخي أو جامع بينهما) [ن: ص 25 وما بعدها]. ونفس الأمر نجده في كتاب "مدخل إلى علم الاصطلاح" حيث عرض صاحبه لمجموعة من البحوث التي درست المصطلح في مجالات مختلفة (قرآنية ونقدية وفلسفية ولغوية) دون أن تضبطها عناصر منهجية محددة. [ن: مدخل إلى علم الاصطلاح: ص88 وما بعدها].

[2]- المصطلح الأصولي عند الشاطبي، فريد الأنصاري: 51/1.

2. الدراسة المصطلحية "**منهـــاج عمـــل** يحصر ويصف استعمالات واصطلاحات علـــم ما في نص من نصوص ذلك العلـــم" [1].

3. الدراسة المصطلحية "**تناول المصطلح** بإعمال الذهن في نصوصه قصد الكشف عن واقعـــه الدلالي والاستعمالي، كشفا يجعلـــه محدد المعاني والخصائص والعلاقات والضمائم، ومعالجة ما يتعلق به من قضايا ومسائل"[2].

4. "الدراسة المصطلحية **ضرب من الدرس** العلمي لمصطلحات مختلف العلوم، وفق منهج خاص بهدف تَبيُّن وبيان المفاهيم التي عبرت أو تعبر عنـــها تلك المصطلحات في كل علم في الواقع والتاريخ معا"[3].

5. **الدراسة المصطلحية "دراسة منهجية** جامعة تَتَبَيَّنُ مفاهيم المصطاحات من نصوصها، وتُبَيِّنُ المقومات الدلالية الذاتية للمصطلح، وامتداداته داخل النسيج المفهومي للنص عبر ضمائمه واشتقاقاته، والقضايا الموصولة به"[4].

لاشك أن تتبع هذه التعريفات بالدرس والتحليل والنقد قد يوصل إلى نتائج تصب في مجرى تقويم التعريف وإعادة صياغته من جديد، ومعلوم أن تقويم التعريفات وتعقبها من الأمور العلمية التي طبعت مسيرة الحدود في كل المجالات العلمية، وهي ظاهرة تعكس تطور الأفكار وتلاقحها، لكننا سنكتفي هنا ـــ بحسب ما يسمح به المقام ـــ بعرض بعض الملاحظات التي تشكل منطلقا للمقارنة بين الدراسة المصطلحية وعلم الدلالة، حيث تكرر في أكثر من تعريف أن الدراسة المصطلحية تكشف عن "**الواقع**

---

[1]- ورد هذا التعريف في تعقيب للأستاذ ادريس الفاسي الفهري على ورقة د.فريد الأنصاري" منهجية دراسة المصطلح التراثي" ضمن أعمال دورة: نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي، التي نظمها معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي: ص235.

[2]- لتعريف الأستاذ مصطفى اليعقوبي في تعقيبه على نفس الورقة، [المرجع السابق: ص246].

[3]- نظرات في منهج الدراسة المصطلحية، الشاهد البوشيخي: ص3.

[4]- مفهوم التأويل...، ص: 38.

الدلالي" للمصطلح، كما أشير أيضا على هامش بعض التعريفات إلى أنها ترصد أيضا **التطور الدلالي** للمصطلح، وأشير في بعضها الآخر إلى أنها تبين المقومات **الدلالية** للمصطلح، أو تبين **مفاهيم** المصطلحات، أي معانيها، وكل هذه الإشارات الواصفة لطبيعة الدراسة المصطلحية تؤكد وجود صلات بينها وبين علم الدلالة الذي سنبين المقصود به في ما يلي:

2. مفهوم علم الدلالة

إن وضع تعريف لعلم الدلالة لا يقل صعوبة عن وضع تعريف للدراسة المصطلحية، وإن كان السبب هنا يختلف عن السبب هناك، فليس مرد هذه الصعوبة إلى جدة البحث في هذا المجال، وإنما مردها إلى تشعب هذا المجال إلى فروع وأنواع ومدارس كثيرة، والسبب في ذلك أن علم الدلالة يبحث في ظاهرة "المعنى"، وموضوع "المعنى" واسع (إلى حد أنه يمكن القول تقريبا إن أي شيء يمكن أن يعد ذا معنى ـــ أيا كان هذا المعنى ـــ مؤهل تماما لأن يكون أحد موضوعات علم الدلالة) [1]، لكننا مع ذلك لن نستسلم لهذه العوائق، وحسبنا أن نعرفه بالسمات العامة المتفق عليها بين المتخصصين في هذا المجال. وهنا يمكن القول: **إن علم الدلالة فرع من علم اللغة، يهتم أساسا بدراسة معاني الألفاظ والكلمات وتغيرها وتطورها والقوانين التي تحكم ذلك التغير والتطور،** لكن هذا المفهوم عرف تطورا وتبلورا على يد المتخصصين والدارسين في الغرب، حيث تطور من مجرد الاهتمام بالمعاني في تشكلها وتطورها إلى الاهتمام بالصورة المفهومية التي تعكسها علاقة الدال بالمحتوى الفكري الذي في الذهن، ثم برز جانب آخر في هذا المجال يركز على العلاقة بين الكلمات ضمن ما يسمى بنظرية الحقول الدلالية، يقول ميشال زكريا: "أما علم الدلالات فهو مستوى من مستويات الوصف اللغوي، ويتناول كل ما

[1] - الله والإنسان في القرآن، إيزوتسو، 29.

يتعلق بالدلالة أو بالمعنى فيبحث مثلاً في تطور معنى الكلمة ويقارن بين الحقول الدلالية المختلفة"[1] .

ولعل أبرز تطور عرفه علم الدلالة ذاك الذي تبناه الباحث الياباني المتخصص في الدراسات العربية: توشيهيكو إيزوتسو (1914-1993) الذي ربط علم الدلالة بالمصطلحات والتعابير المفتاحية، وباختزالها لنظرة مستعمليها إلى العالم، وبناء على ذلك عرف علم الدلالة بقوله: (علم الدلالة كما فهمته: دراسة تحليلية للتعابير [المصطلحات] المفتاحية **Key Terms** في لغة من اللغات، ابتغاء الوصول أخيرا إلى إدراك مفهومي للنظرة إلى العالم لدى الناس الذين يستخدمون تلك اللغة أداة ــ ليس فقط للتحدث ــ بل أيضا ــ وهذا أكثر أهمية ــ لتقديم مفهومات وتفسيرات للعالم الذي يحيط بهم)[2].

3. نقط التقاء بين الدرس المصطلحي والدرس الدلالي

سبقت الإشارة في تعريف الدراسة المصطلحية إلى أن أهم سمة تربطها بالدرس الدلالي كونها تعنى بوصف الواقع الدلالي للمصطلح وتطوره، لكن ذلك لا يكفي لتبرير إجراء مقارنة بين المجالين وادعاء صلة بينهما، بل يتعين إيجاد أكثر من نقطة التقاء واشتراك، وهو ما سنحاوله من خلال بعض القواعد المنهجية في النظريات الدلالية أولا، ثم من خلال نموذج جد متطور لهذه النظريات عرف تطبيقا له على النص القرآني من قبل الباحث الياباني توشيهيكو إيزوتسو.

1.3. بين الدرس الدلالي والدرس المصطلحي

- **الاهتمام بمعاني الألفاظ والكلمات**، وإذا كانت الدراسة المصطلحية إنما تهتم بها في حال كونها مصطلحات، فإنها لا تستبعد دراستها في واقعها المعجمي العام قبل أن

[1] - الألسنية: علم اللغة الحديث، ميشال زكريا، ص: 211.

[2] - الألسنية: علم اللغة الحديث: 30

يصيرها الاستعمال الخاص داخل مجال علمي معين مصطلحات، والدراسة المعجمية للألفاظ، وتتبع أصولها الدلالية، من أوجب الواجبات العلمية في الدراسة المصطلحية كما هو معلوم.

- **العناية بالتطور الدلالي للألفاظ:** وهو من صميم الدرس المصطلحي في بعده التاريخي، حيث تكون العناية بتتبع التطور الحاصل في معاني المصطلحات، سواء بالنسبة لمجال معرفي معين، أو بالنسبة لعلم من الأعلام، ولا يستثنى النص القرآني أيضا من ملاحظة هذا البعد التاريخي، حيث يحرص الدارس المصطلحي على بيان تطور دلالات الالألفاظ القرآنية بين العهد المكي والمدني، بعد ملاحظة تطورها في اللغة بين عصر ما قبل النزول، وبين معناها في القرآن الكريم.

- **العناية بالعلاقات بين الألفاظ المنتمية إلى مجال معرفي أو موضوعي معين،** وهو ما يعرف بالحقل الدلالي، ومفهوم الحقل الدلالي يتأسس على فكرة العلاقة الدلالية بين مجموعة من الكلمات تجمعها فكرة أو رؤية أو تصور أو موضوع معين، وهذا المعنى لا يختلف كثيرا عن مفهوم "الأسرة المفهومية" التي تتكون من مجموعة من المصطلحات تنتمي إلى نفس المجال المعرفي، وكما يهتم الدارس المصطلحي بدراسة العلاقة بين أفراد تلك الأسرة المفهومية ضمن مبحث أساس من مباحث الدراسة وهو "مبحث العلاقات"، فإن الدارسين الدلاليين ضمن نظرية الحقوق الدلالية يهتمون (ببيان أنواع العلاقات الدلالية داخل كل حقل من الحقول المدروسة، فيحصرون تلك العلاقة في الأنواع الآتية: الترادف، الاشتمال، علاقة الجزء بالكل، التضاد، التنافر) [1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن اللغويين العرب قد اهتدوا في فترة مبكرة إلى فكرة الحقول الدلالية، وإن لم يسموها بهذا الاسم، من خلال تصنيفهم للألفاظ في مجالات مفهومية مختلفة، كما نجد في معاجم المعاني والموضوعات، في حين لم يؤلف الغرب

[1] - ينظر: مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، ص: 305.

معاجمه الموضوعية إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي. إلا أن الدارسين في الغرب قد طوروا هذا المفهوم وسعوا إلى توسيع تطبيقاته في مجال الدراسات الأدبية، ومجال صناعة المعجم، فيم لم تجد جهود علمائنا القدامى من يطورها ويجدد أشكالها ويستثمرها في الدراسات المصطلحية، وغيرها من المجالات.

- **العناية بالأسرة الاشتقاقية للألفاظ**، فضمن نظرية الحقوق الدلالية، يعتبر الحقل الصرفي أحد أنواع الحقل الدلالي الذي تصنف فيه الوحدات الدلالية بناء على العلامات الاشتقاقية التي تشكل سمة مشتركة داخل الحقل الواحد[1]، وغير بعيد عن هذا المفهوم مبحث "المشتقات" الذي تدرس فيه مشتقات المصطلح، إلا أن ما يميز الدرس المصطلحي لهذه المشتقات تركيزه على الصلات المفهومية بينها، وعدم الاكتفاء بالصلات الاشتقاقية اللغوية الصرفة.

هذه جملة من المسائل المنهجية يلتقي فيها الدرس المصطلحي بالدرس الدلالي، ولو بشكل جزئي أحيانا، نردفها ببعض القواسم المشتركة بين الدراسة المصطلحية ونظرية "النظرة الدلالية إلى العالم" التي تبناها الباحث الياباني توشيهيكو إيزوتسو.

2.3. بين علم دلالة القرآن والدرس المصطلحي للقرآن

تعتبر دراسة الباحث الياباني المتخصص في الدراسات العربية في موضوع "علم دلالة القرآن" من خلال كتابه "**بين الله والإنسان في القرآن، دراسة في علم دلالة القرآن**"، دراسة متميزة تستحق التأمل، خاصة من قبل المهتمين بالدرس المصطلحي للقرآن الكريم، ذلك أنه فتح في هذه الدراسة آفاقا جديدة لدراسة القرآن الكريم انطلاقا من مفاهيمه ومصطلحاته الكلية، لم يعهدها الدرس الدلالي ولا القرآني من قبل، علما بأن دراسته هاته خرجت إلى الوجود في الستينات من القرن الماضي (1964م) وإن كانت لم تترجم إلى العربية إلا في مؤخرا (2007م). من خلال هذه الدراسة أمكن

[1]- ينظر: الألسنية العربية، ريمون طحان، ص: 96-97.

تسجيل العديد من التقاطعات المنهجية بين الدراسة المصطلحية ـــ خاصة في مجال القرآن الكريم ـــ وبين تصور هذا الباحث لعلم الدلالة ولمنهج التحليل الدلالي. ويمكن إجمال هذه التقاطعات في ما يلي:

- ينطلق إيزوتسو من تصور يترع إلى دراسة المفاهيم الكلية، باعتبارها مداخل إلى فهم التصورات الوجودية لأصحابها، وقد طبق هذه الرؤية في دراسته للقرآن الكريم انطلاقا من منظومته المفهومية التي ضمنها مصطلحاته و تعبيراته، ولمزيد من الشمولية والكلية، ركز على المصطلحات المفتاحية والصميمية، أي تلك التي يراها أساسية ومهمة لفهم البنية المفهومية للقرآن كله، ولهذا السبب كان اختياره لموضوع الله والإنسان، الذي عنون به كتابه.

والملاحظ أن هذا التصور شديد القرب من تصور الدراسة المصطلحية الذي ينطلق من مفتاحية المفاهيم والمصطلحات، واختزالها لأسس العلم وتصورات أهله، وفي مجال القرآن الكريم لم يتردد أستاذنا الدكتورالشاهد البوشيخي من الإعلان بأن (الوحي مجموعة من المفاهيم) [1].

- ينطلق إيزوتسو من أن القرآن الكريم استعمل اللغة العربية باعتبارها معجما لغويا أو نظاما مفهوميا، وهذا المعجم اللغوي ليس عبارة عن مفاهيم مستقلة (كمفهوم الله والإنسان والنبي والإيمان والكفر...) بل هي (تؤلف فيما بينها مجموعات [من العلاقات] متنوعة ...مرتبطا كل منها بالأخرى ...وهكذا تؤلف في النهاية كلا منظما، شبكة غاية في التعقيد والتركيب من الترابطات المفهومية) [2] . ويفهم من هذا أن غاية الدرس الدلالي هو النظام المفهومي وليس المفاهيم المستقلة أو الفردية. وتلك أيضا غاية الدرس المصطلحي للقرآن الكريم، وقد صرح الأستاذ الشاهد البوشيخي ـــ في هذا

[1] - مفهوم التأويل، أ.

[2] - الله والإنسان، 31.

السياق ـــ بأن (الوحي نسق من المفاهيم) وبأن (تلك المفاهيم ليست معزولة عن بعضها بعضا، وليست منثورة كيفما اتفق، وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام، منظومة نظما بديعا رائعا في نسق) [1].

- يرى إيزوتسو أن التغيير الذي أحدثه القرآن الكريم في اللغة العربية، لم يكن تغييرا في الكلمات في حد ذاتها، بل في الاستعمال السياقي للمفاهيم والكلمات الذي ميزها عما كانت عليه قبل نزول القرآن، (وعندما بدأ الوحي الإسلامي باستخدام هذه الكلمات كان النظام كله، أي السياق العام الذي استخدمت فيه هو الذي صدم مشركي مكة بوصفه شيئا غريبا تماما وغير مألوف، ولذلك غير مقبول، وليست الكلمات الفردية والمفهومات نفسها)[2]. هذا التغيير والتطور في المفاهيم، والتحول الجذري للقيم الدينية والخلقية الذي نشأ عنه، هو أساسا، الذي أحدث (الثورة في تصور العربي للعالم والوجود الإنساني، ومن وجهة نظر دارس دلالي مهتم بتاريخ الفكر فإن هذا نفسه ـــ وليس شيئا آخر ـــ هو الذي أعطى للرؤية القرآنية للكون ... صبغة خاصة) [3]. وهذا المعنى مقرر في الدرس المصطلحي في مجال القرآن الكريم، حيث يعبر المصطلح القرآني عن التطور الدلالي الذي أحدثه القرآن في لغة العرب.

- إلى جانب دراسة المفاهيم في بنيتها الساكنة كما استعملت في القرآن الكريم، درسها إيزوتسو في بعدها التعاقبي المتغير، أي في تطورها من الاستعمال الجاهلي، "قبل ـــ القرآني"، إلى الاستعمال القرآني، بل إنه حتى على مستوى القرآن الكريم نفسه لاحظ هذا المستوى التعاقبي، ف(لغة القرآن نفسها قد تعد عملية تاريخية تمتد على قريب من

[1]- مفهوم التأويل، أ.

[2]- الله والإنسان، 32

[3]- الله والإنسان، 32.

عشرين سنة في مرحلتين متميزتين، المكية والمدنية) [1]. ولا حاجة إلى التعليق على هذا التصور ومدى مطابقته لتصور الدراسة المصطلحية للقرآن الكريم.

خلاصات واستنتاجات

إن هذه التقاطعات المنهجية بين بعض مكونات الدراسات الدلالية وبعض سمات الدراسات المصطلحية، قد لا تكون مسلمة عند الكثير من الباحثين، لسبب أساس هو أن المنطلقات والأسس والأصول العامة في كلا المجالين تختلف وتتباين. لكنها تقاطعات تدفعنا إلى تحصيل نتيجتين أعتبرهما خيارين أمام الباحثين المهتمين بالدراسة المصطلحية:

النتيجة الأولى: أن هذه التقاطعات تدفعنا إلى تطوير الدراسة المصطلحية في اتجاه إلحاقها بعلم الدلالة لتصير فرعا من فروعه. وهذا أمر تحول دونه عقبات ومشكلات يعاني منها علم الدلالة نفسه الذي تتقاذفه تيارات ومدارس تتصارع فيها آراء وأهواء، فلا ندري أي تيار وأي مدرسة تصلح لاحتضان الدراسة المصطلحية، كما أنه يحول دونه تباين في الأسس والمنطلقات بين المجالين.

النتيجة الثانية: أن هذه التقاطعات والتداخلات بين المجالين، تعطي الحق للدراسة المصطلحية بأن تصبح علما مستقلا كما هو حال علم الدلالة. وهي تستحق ذلك لامتلاكها كل شروط العلمية، وشرط العلمية فيها:

- **موضوعها** الذي هو مصطلحات العلوم،
- **ومنهجها** الذي حدد في ستة أركان واضحة المعالم،
- **وغاياتها** المتمثلة في تعريف المصطلحات المدروسة وبيان خصائصها ومميزاتها.

[1] - نفسه: 67.

- **ومصطلحاتها** التي صارت علما عليها.

وهي تستحق ذلك في استقلال تام عن علم الدلالة أو أي علم آخر شبيه بها، لأنها مختلفة و متميزة عن غيرها من العلوم، وعن علم الدلالة تحديدا، وتميزها نابع من:

- **دقة منهجية**: اكتسبتها من أدوات الإحصاء والدراسة المعجمية والدراسة النصية وسائر الأدوات المنهجية المعتمدة فيها.

- **ووضوح في الرؤية**: ناتج من وعي بمفتاحية المصطلحات بالنسبة للنصوص ثم بالنسبة للعلوم.

- **وسلامة مذهبية**، بسبب ما تضمنه قواعدها من حيادية وموضوعية وبُعد عن الإسقاط والتأويل.

لقد عرف تراثنا علوما كثيرة نشأت عن اشتغال العلماء ببعض الفروع العلمية الدقيقة كعلم الغريب وعلم الوجوه والنظائر وعلم المفردات، و لم يمنع وجود علم كبير كعلم التفسير مثلا نشأة مثل هذه العلوم التي تعد ـــ مقارنة به ـــ مجرد فروع وتخصصات صغيرة.

كما دأب أقوام في الغرب على إضفاء صفة العلمية على أبسط الأنساق والنظريات التي لا تستجيب لشروط العلمية، واستسهلوا ذلك حتى صارت كلمة (علم) **Logie** مذيلة وواصفة لكثير من الأفكار بل الأساطير أحيانا، في حين نتردد في منح صفة العلمية لدراسة تمتلك الدقة والمنهجية وصفاء الرؤية ووضوح القصد.

من أجل ذلك تأتي هذه الدعوة لأهل الدراسة المصطلحية أن ييسروا لها سبيل الانتقال إلى طور تستوي فيه على سوق العلمية قلبا وقالبا، وذلك بتحديد أكثر لمفهومها، وبيان أوفى لأصولها ومنطلقاتها، وتسطير أدق لقوانينها وقواعدها، وهي دعوة ستظل قائمة إلى أن ينهض أهل هذا الشأن لها ويتنادوا إلى يوم يحسمون فيه هذا الأمر، فإما إمساك لهذه الدراسة بمعروف العناية بتحديد هويتها العلمية وتسميتها بما يليق بها،

وإما إحسان إليها بتسريحها لتجد ركنا علميا شديدا تأوي إليه من العلوم المشابهة والمماثلة لها.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.